

لهات الكلب بينة علمية

د. محمد بن إبراهيم إبراهيم دودح
الباحث العلمي بهينة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

إن دلالات الوحي في القرآن متعددة الوجوه وتختص بحديثه الجامع الفريد السامي الأغراض الداعي لكل فضيلة والناهي عن كل رزية والمحكم البيان الموافق للحق في كل نبا والمتضمن حقائق خفية بتلطف لا يلفت عن غرض، وفي جملة من روائع المشاهد التصويرية يجسد القرآن حال المكابرين أمام الآيات الناطقة بدلائل الوحي؛ يقول العلي القدير: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ بَدِلٌ إِنَّ الْقَوْمَ لَخَاسِرُونَ»^١، والتمثيل يجسد عناد قوم طمسوا فطرة الإيمان بلغ حد اختيار الموت على الحياة، والعناد حالة معنوية شخصتها مشاهد حسية تصدق على كل متعامي عن دلالات الوحي، ويستقيم أن يعود الوصف باللهات على من يفر مبتعدا عن الهدى سواء وعظته أو تركته بيانا لغاية العناد؛ وفي التعقيب «ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»؛ تصریح بالترفع عن معتاد القصة إلى تمثيل يشخص بالغ العناد وسوء المصير ويعرض بالسامع ليتجنب نفس المصير.

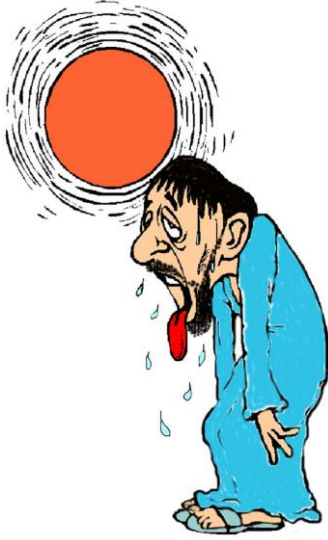
وقد اشتمل العرض على جملة من بدائع التصوير وروائع التمثيل تكشف خفايا النفوس، ويجسد فقدان الإيمان مشهد المنسلخ الجلد المتعري بلا وقاية، والفعل (انسَلَخَ) يصف الساعي لهلاك نفسه بجيفة هالك تعددت مشاهد مهلكه، فمع تعريه طمع الشيطان بغوايته فأتبعه كاسد يسعى نحو فريسة أو كانه قد تردي من شاق بلا مستند يبقيه ساميا فهلك، والغافل الأسير الأطماع أصم لا يستجيب كميت لاصق بالأرض بلا حركة تنم عن حياة، ولكن أيسلخ عاقل جلده الواقى ليهلك!؛ هكذا المنسلخ من فطرة الإيمان المجد دوما في الإعراض إن أقمت عليه حجة لا يستجيب وإن تركته لا يتوقف عن الفرار من شدة العناد ساعيا لمهلكه، قال ابن عاشور: "الانسلاخ حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه جلده والسلخ إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده"^١، وقال العيني: "﴿فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا﴾ اتبع هواه فانسلخ من الإيمان"^٢، وقال ابن القيم: "أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها.. ولم يقل فسلخناه منها لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.. فلما انسَلَخَ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته"^٣.



مشهد المنسلوخ الجلد نموذج يشخص حال المكابرين في كل عصر الفاقد الوقاية بالإيمان.



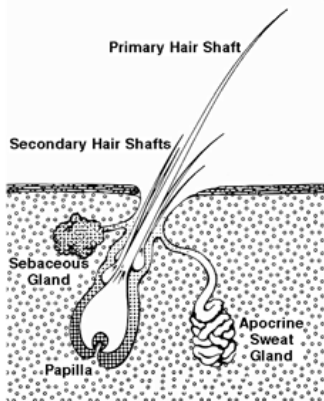
قال ابن الجوزي: "قوله تعالى ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ﴾ معناه أن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر وإن تركته لم يهتد فالحالتان عنده سواء.. والتشبيه (وقع) بالكلب اللاهث خاصة.. فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته"؛ وقال **الكلبي**: "(و)اللاهث.. تنفس بسرعة وتحريك أعضاء الفم وخروج اللسان"؛ وقال **السيوطي**: "عن قتادة.. قال هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه"؛ وقال **البغوي**: "نظيره قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ الأعراف ١٩٣"؛ وقال **الرازي**: "هو عام فيمن عرض عليه الهدى فأعرض عنه.. وهو قول قتادة وعكرمة وأبي مسلم.. وهذا يقع على كل كافر لم يؤمن بالأدلة وأقام على الكفر.. واللاهث هو أن الكلب إذا ناله الإعياء عند شدة العدو وعند شدة الحر فإنه يدلع لسانه.. واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع (أحوال) الكلاب وإنما وقع بالكلب اللاهث.. قال تعالى ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فعم بهذا التمثيل جميع المكذبين بآيات الله.. فحصل التمثيل بينهم وبين الكلب.. لأنهم.. بقوا على الضلال في كل الأحوال.. صاروا في التمثيل.. بمنزلة الكلب اللاهث"٨.



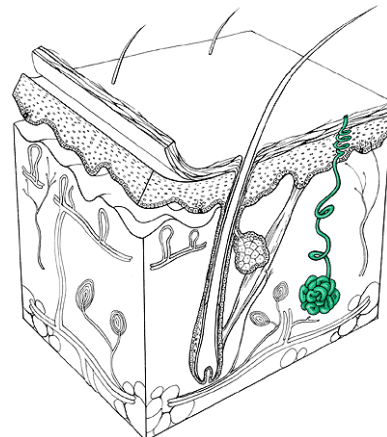
وينقلك التمثيل إلى القفار في يوم قانظ تلهث فيه الكلاب لتعائن هارب يتصبب عرقا وتتلاحق أنفاسه قد ناله الإعياء من العدو والحر فأرا من أمان العشييرة ساعيا للضلال والتعرض للضواري أو الترددي من شاهق لا يستجيب لواعظ ولا يسترد رشده ويرتدع، يتمسك بالحطام ويلتصق بالرغام متهاك هالك كجيفة لم تبق فيها علامة حياة، ولا يقف التمثيل عند تصوير تلاحق أنفاسه باللاهث بيانا للفرار من الحق وإنما لا يُبقي له بعد سلخه لجلده إلا اللهاث فحسب على كل حال دون العرق فيشبهه صريحا بالكلب في الطبيعة كما في اللهاث، قال **أبو السعود**: "(إنما هو) تشبيه.. ما اعتراه بعد الانسلاخ"٩، وليس عند الكلب كما في جلد الإنسان غدد عرق لتنظيم الحرارة ولذا لا يملك إلا اللهاث.

وتُعائن في جلد الإنسان مجهريا غدد عرق تختص بتنظيم درجة حرارة الجسم Eccrine Sweat Glands، ولا يوجد منها في جلد الكلب سوى القليل في أقدامه وتوجد بدلا عنها غدد تختص بالترطيب وتمييز رائحة الكلاب Apocrine Sweat Glands، ولا يوجد للكلب إذن غدد عرق كالإنسان وإنما يماثل فحسب المسلوخ الجلد وبهذا قد كشفت الأيام مغزى التشبيه، فيفقد الإنسان لجلده الوافي تجسيدا لفقده الإيمان وإبطاله التفكير الواعي كأنه بلا عقل يصبح كالكلب الذي يفترق للعرق ولا يملك إلا اللهاث فضلا عن كونه حيوانا بلا عقل، والتعريف في لفظ (الكلب) للجنس ولا تملك بالفعل كل أنواع الكلاب إلا اللهاث Panting، ولم يقل القرآن (فمثله كالكلب) وإنما قال (فمثله كمثل الكلب) للمباعدة بينهما تنزيها للكلب عن الكافر المتمكر لفطرته، فأى حديث يداني القرآن في دقة التعبير وروعة البيان!.

Canine Skin and Hair



لا يحتوي جلد الكلب على غدد عرق مثل الإنسان ولذا لا يملك إلا اللهاث.



يحتوي جلد الإنسان على غدد عرقية تختص بتنظيم درجة حرارة الجسم.

قال **الطبري**: "إنما هو (للناس جميعا) مثل ضربه الله.. لسائر المكذبين بآيات الله.. ليتفكروا.. فيعلموا حقيقة أمرك وصحة نبوتك.. في علمك بذلك.. (لأنه يتضمن) الحجة البينة لك عليهم بأنك لله رسول وأنت لم تعلم ما علمت من ذلك.. إلا بوحى.. لعلمهم يتفكرون فيعرفون أنه لم يأت بهذا الخبر.. إلا نبي.. ساء مثلا القوم الذين كذبوا بحجج الله وأدلتها"^١، وقال **سيد قطب**: "قد كانت آيات الهدى.. متلبسة بفطرتهم.. ثم إذا هم ينسلخون منها.. هابطون من مكان الإنسان إلى مكان الحيوان.. وكانوا من فطرتهم.. في أحسن تقويم فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين.. وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى مثلا؟.. وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟.. يعريها من الغطاء الواقى والدرع الحامية ويدعها عرضا للشيطان.. وبعد.. فهل هو نبا يتلى أم.. مثل يضرب في صورة النبا..؟ (وحتى لو لم يكن مثلا فالحكمة تقتضي) أن نأخذ من النبا ما وراءه.. وما أكثر ما يتكرر هذا النبا في حياة البشر"، يقول **العلي القدير**: «**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ**» العنكبوت ٤٣.

^١ التحرير والتنوير لابن عاشور ج٩ ص١٧٦.

^٢ عمدة القاري ج١٨ ص٢٣٦.

^٣ الأمثال في القرآن لابن القيم ج١ ص٢٦.

^٤ زاد المسير لابن الجوزي ج٣ ص٢٩٠.

^٥ التسهيل لعلوم التنزيل للكلبى ج٢ ص٥٤.

^٦ الدر المنثور للسيوطي ج٣ ص٦١٠.

^٧ تفسير البغوي ج٢ ص٢١٣.

^٨ التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٥ ص٤٥-٤٨.

^٩ تفسير أبي السعود ج٣ ص٢٩٢.

^{١٠} تفسير الطبري ج٩ ص١٢٠.